
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله الذي جعلَ محل نظره القلوب لا الأبدان، والصلاةُ والسلامُ الأتمَّان الأكملان على نبيِّنا محمد سيِّد ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ذوي التقى والإيمان.

أما بعد:

فكثيرٌ أولئك الذين لا يسبقُ إلى أذهانهم حينما يسمعونَ كلمةَ (الاعتكاف) سوى اعتكاف الجسد في بيتٍ من بيوتِ الله، فهو في مخيلتهم منحصرٌ في مفهومِ الاعتكافِ الحسي، وهذا وإنْ كان مِن شرائطِ الاعتكاف إلا أنه ليس هو مقصودُه، فإنَّ مقصودَه والغايةَ منه: اعتكاف القلب الذي هو موضع نظر الله: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[(١)].

وكم مِن عبدٍ عكفَ بجسدِه في بيتِ الله، لكنه لم يصلْ إلى

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٦) رقم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الاعتكافِ الذي أراده الله ﷻ؛ ولهذا علَّق اللهُ سبحانه الخيرَ الذي يُؤتيه عبدَه بالخيرِ الذي في قلبِ عبدِه، فقال سبحانه: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال:٧٠].

فكلما صحَّ القلبُ وتعالى على الدنيا؛ أقبلتْ مِنحُ الله وهباتُه عليه، والعشر الأواخر من رمضان أحرى الأيام بهذه المنح، والعاكفُ في بيتِ الله (عكوفَ قلب) حقيقٌ بذلك؛ لصدقِه وقربِه مِن الله.

ولكي يكون الاعتكافُ اعتكاف قلب لا جسد فقط، وليتذوق المُعْتكِف هذه العبادة، وتستقيم له هذه الطاعة، ويستروح روحها، ويستحضر معاني العبودية فيها؛ ينبغي له أن يتطلع إلى السِّمات التالية:

السِّمةُ الأولى
قطعُ العلائِق عنْ الخلائِق

إنَّ سِرَّ الاعتكاف وغايته، الخلوةُ بالله وتفريغُ القلب وقطعُ علائقِه بالخلائق؛ ولهذا كان اللائقُ بالْمُعْتَكِف أَنْ يكون مُنهمكًا في التَّنسُّك والعبادات الخاصة، مُقبلًا على ربِّه بتخليةِ القلب لله، والإلحاح في طلبِ رضاه، والإلحاف في نيلِ مغفرتِه وعفوه، كما قال عطاء رحمه الله: «مَثَل الْمُعْتَكِف كرجلٍ له حاجةٌ إلى عظيمٍ، فجلسَ على بابِه، يقولُ: لا أَبرحُ حتى تَقْضِي حاجتي، وكذلك الْمُعْتَكِف يجلسُ في بَيتِ الله يقول: لا أَبْرحُ حتى يُغْفَر لي»[1].

ولهذا كان المشروعُ للمُعْتَكِف أنْ يكونَ عَزوفًا عن الناس، مجافيًا لمجالسِهم، وقد نصَّ الإمامُ أحمد رحمه الله على أنه ينبغي للمُعْتَكِف أنْ لا يخالطَ الناس حتى ولو كان ذلك لتعليمِ علم أو إقراء قرآن، وأنَّ

(١) ينظر: وظائف رمضان ص (٧٥).

الأكملَ له الانفراد والتخلي لمناجاةِ ربِّه وذكرِه ودعائِه[(١)].

وبنظرةِ تأمُّل، نجدُ أنَّ عبادةَ الاعتكاف اقترنت بعبادةِ الصوم؛ لأنَّ حكمةَ مشروعيتهما واحدة، وهي: إصلاح القلب بتقوى الله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]، ويبلغُ العبدُ الصائمُ الذروةَ في إصلاحِ قلبِه حينما يعتزل الناس، ويعتكف بقلبِه وجسدِه، خاليًا بربِّه، منطرحًا بين يديه، وكان مِن هدي النبي ﷺ في الاعتكاف الانفراد عن الناس، وكان يأمرُ بأنْ يُضربَ له خِبَاء[(٢)] في المسجدِ يلزمُه، ويخلو بربِّه، كما قالت عائشة رضي الله عنها : «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، يَعْتَكِفُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَكُنْتُ أَضْرِبُ لَهُ خِبَاءً فَيُصَلِّي الصُّبْحَ ثُمَّ يَدْخُلُهُ»[(٣)].

إنَّ جُل الطاعات وكثيرًا مِن العبادات تجتمعُ للعاكفِ المنفردِ

---

(١) ينظر: وظائف رمضان ص (٦٠).

(٢) الخباء: بكسر المعجمة وتخفيف الموحدة مع المد هي خيمة من وبر أو صوف، ثم أُطلقت على البيت كيف ما كان. ينظر: النهاية (٢/ ٩)، اللسان، (١٤/ ٢٢٣) (خبا).

(٣) أخرجه البخاري، (٣/ ٤٨) رقم (٢٠٣٣)، ومسلم (٢/ ٧١٥)، رقم (١١٧٢).

الخالي بربِّه، وأعظم هذه العبادات وأشرفها: عبادة القلب، ولأنَّ القلبَ هو سيد الأعضاء فإنه مخصوصٌ بسيد العبادات: الإخلاص، وليس شيءٌ مِن الحالاتِ تزيدُ الإخلاصَ وتُنميه كما في حالةِ العبد المنكسر المنطرح بين يدي مولاه حين الخلوة بالله، والعكوف على طاعته؛ ولهذا فإنّه يتذوق حلاوةَ الإيمان، ويجد له مذاقًا وطعمًا لا يُساميه أيّ مذاق، ولا يُدانيه أيّ طعم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].



السِّمةُ الثانية
العيشُ مع القرآن

لُبُّ العبادةِ وحياةُ القلبِ مصدرُها الأول: كتاب الله، الذي جعله الله روحًا وحياةً ونورًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ولا غرو أنْ يجدَ المؤمنُ حياةَ قلبِه في تدبر القرآن؛ لأنَّه يتذوقُ بتلاوتِه المتأنية حلاوةَ المناجاة لكلامِ ربِّه، فيعيشُ في آفاق الآيات التي يسري رَوْحُها في خلجاتِ قلبه، فيجد حينها لقلبِه حياةً أخرى، ولقراءته لذَّةً لا يَصِفُها لسانُه، ولا تُدوِّنها أقلامُه، وذلك لعظمةِ الخطاب الرباني وروعةِ جماله الذي يَسلُبَ عقلَ المتدبرِ فترِقُّ نفسُه، ويَلُفها سكينة وخشية، فيتجلى للقلبِ مِن المعاني ما يَفيضُ نورًا وغيثًا يُضفي على القارئ جلالًا وجمالًا.

وكما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ، فكذلك القرآن ربيع أفئدة أهل الإيمان، وهو نهر الحياة لقلوبِهم، «فلا شيء أنفع للقلبِ مِن قراءةِ القرآن بالتدبر والتفكر ... يُورث المحبَّة والشوق والخوف والرجاء ... وسَائِر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله ... فلو علم النَّاس ما في قراءة القُرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عنْ كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مَرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبه، كررها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير مِن قراءةِ ختمة بِغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حُصُولِ الإيمان وذوق حلاوة القرآن ... فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب»(١).

وهذا ليس لكلِّ قارئ للقرآن بل لمن «كان هَمُّه عند التلاوة للسورة إذا افتتحها: متى أتَّعِظُ بما أتلوه؟ ولم يكنْ مرادهُ: متى أختم السورة؟، مرادهُ: متى أعقل عنْ الله الخطاب، متى أزدجر، متى أعتبر؟ لأنَّ تلاوة القرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة»(٢).

ومتى ما عاش المعتكف مع القرآن على هذا النحو فقد أحرز

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧)، بتصرف.

(٢) أخلاق حملة القرآن ص (١٨).

عكوف القلب الذي هو بُغية طلاب الاعتكاف الحق.

إنَّ العيشَ مع القرآن وتدبره مفتاح استقامة القلب، ولا شيء يَعْدِلُ العيش مع القرآن في تثبيتِ القلب وإرساءِ دعائمه؛ ولذا أمر الله «بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أَسْنَى المواهب، فلو أنفق العبدُ جواهرَ عُمُرِهِ في هذا الفن، لم يكنْ ذلك كثيرًا في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدِّين والدنيا والآخرة، وبه يتحقق للعبد حياة زاهرة بالهدى والخير والرحمة، ويُهيء الله له أطيب الحياة والباقيات الصالحات»[1].

إنِّ الانطلاقةَ الأولى للعيشِ مع القرآن تكمُن في تدبّره وطول التأمُّل في آياته.

نعم إنه «ليس شيءٌ أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاتِه مِن تدبر القرآن، وإطالة التأمُّل فيه، وجَمْعِ الفكر على معاني

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن ص (٧– ٨).

آياته، فإنها تُطْلِعُ العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طُرُقَاتِهما، وأسبابهما، وغاياتهما، وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[1] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتُوَطِّدُ أركانه، وتُرِيهِ صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحْضِرُهُ بين الأمم، وتُرِيهِ أيام الله فيهم، وتُبَصِّرُهُ مواقع العبر، وتُشْهِدُهُ عدل الله وفضله، وتُعَرِّفُهُ ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يُحبه وما يُبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتُعَرِّفُهُ النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وفي تأمُّل القرآن وتدبره، وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من

(١) يَتُلُّ: بضم التاء، من الفعل (تَلَّ)، ويقال: يَتِلُّ بكسر التاء: ومعناه دفعه وألقاه. يُنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٩٥)، وتاج العروس (٢٨/ ١٣٨).

الحِكَم والفوائد. وبالجملة فهو أعظم الكنوز، طِلَّسْمُه[١] الغوص بالفكر إلى قرار معانيه»[٢].

ومِن أنفعِ الوسائل المعُينة على تدبر القرآن: ترديد الآيات، فهو السبيل إلى استدرار كنوز القرآن وأسراره.

عن أبي ذر ﷺ قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا وَالْآيَةُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]»[٣].

قال بِشْر بن السَّرِي: «إنما الآية مثل التمرة؛ كلما مضغتها استخرجت حلاوتها»[٤].

وقال الْـمُوَفَّق ابن قدامة: «وإنْ لم يحصل التدبر إلا بترداد الآية،

(١) الطلسم: هو اسم للسر المكتوم، والمراد بذلك المعاني الدقيقة التي لا تظهر لغير المتعمق في الفهم والعلم والتوسم. ينظر: تاج العروس للزبيدي (٣٣/ ٢٤، ٢٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٥٠، ٤٥١).

(٣) أخرجه النسائي (٢/ ١٧٧) رقم (١٠١٠)، وابن ماجه (١/ ٤٢٩) رقم (١٣٥٠)، وأحمد (٣٥/ ٣٠٩، ٣١٠) رقم (٢١٣٨٨)، والحاكم (١/ ٣٦٧) رقم (٨٧٩)، وإسناده حسن.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/ ٤٧١).

فليرددها»[١].

ومن الْـمُعِينات على تدبر القرآن: الإقبال عليه واستشعار القارئ أنه مُخَاطَبٌ به، فإنَّ ذلك مِن دواعي الفتوحات فيه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله مستشعرًا ما أفاض اللهُ على قلبِه مِن الفتوحاتِ العظيمة والاستنباطات البديعة، وذلك في أثناء سجنه وخلوته بربِّه، وإقباله التام على القرآن: «قد فتح اللهُ عليَّ في هذا الحصن في هذه المرة مِن معاني القرآن، ومِن أصول العلم بأشياء، كان كثيرٌ من العلماء يتمنونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»[٢].

وقال تلميذه ابن القيم رحمه الله: «إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضُر حضور مَن يخاطبه به مَن تَكَلَّمَ به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسانِ رسولِه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

(١) مختصر منهاج القاصدين ص (٥٣).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥١٩).

ﭐلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق:٣٧]، وذلك أنَّ تمامَ التأثير لَمَّا كان موقوفًا على مُؤَثِّرٍ مُقْتَضٍ، ومَحَلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأَبْيَنِهِ وأَدَلِّهِ على المراد.

فإذا حصل الـمُؤَثِّر: وهو القرآن، والمحل القابل: وهو القلب الحي، وَوُجِدَ الشرط: وهو الإصغاء، وانتفى المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيءٍ آخر؛ حصلَ الأثر: وهو الانتفاع والتذكر»[1].

إنَّ مِنَّةَ الله علينا عظيمة، حين أذن لمخلوقات ضعيفة مثلنا، أن تناجيه من خلالِ كلامِه العظيم، قال ابن الصلاح رحمه الله: «ورد أن الْمَلَائِكَة لم يُعْطُوا فَضِيلَة قِرَاءَة الْقُرْآن، وَهِي حريصة لذَلِك على استماعه من الْإِنْس، فَإِذن قِرَاءَة الْقُرْآن كَرَامَة أكْرم الله بهَا الْإِنْس، غير أَن الْمُؤمنِينَ من الْجِنّ بلغنَا أَنهم يقرؤونه، وَالله أعلم»[2].

---

(١) الفوائد ص (٣) مختصرًا.

(٢) فتاوى ابن الصلاح (١/ ٢٣٤)، وينظر: الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٩١).

إنَّ استحضارَ هذا الاصطفاء، واستحضارَ عظمة المتكلِّم بالقرآن، هو أقوى وسائل العيش مع القرآن، قال ابن الجوزي رحمه الله: «ينبغي لتالي القرآن العظيم أنْ ينظرَ كيف لطف الله تعالى بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم، وأنْ يعلمَ أنَّ ما يقرؤه ليس مِن كلامِ البشر، وأنْ يَستحضرَ عظمة المتكلِّم سبحانه وتعالى، ويتدبر كلامه»[1].

ومِن الـمُعِيناتِ على تدبر القرآن والعيش معه: الفرح به، وقراءته بروح الاستبشار والشعور بالفضل، فمَن رَامَ فَهْمَ القرآن؛ فليقرأه قراءة فرح واستبشار؛ فإنَّ ذلك مِن أعظم دواعي التدبر، قال تعالى في وصفِ عبادِه المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧، ٥٨].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص (٤٦).

قال ابن أبي حاتم رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وذُكِرَ عنْ بَقيَّة، عنْ صفوان- يعني ابن الوليد بن عمرو- قال: سمعتُ أَيْفَع بن عبد الكَلَاعِي يقول: لَمَّا قَدِمَ خَرَاجُ العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له، فجعل عمر يَعُدُّ الإبل، فإذا هو أكثر مِن ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله، ويقول مولاه: يا أميرَ المؤمنين، هذا والله مِن فضلِ الله ورحمتِه. فقال عمر: كَذَبتَ ليس هذا هو، يقول الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهذا مما يجمعون»[(١)].

وقال أحمد بن الحواري: «إني لأقرأ القرآن فأنظرُ في آيةٍ منه فيحار عقلي فيها، وأعجب مِن حُفَّاظِ القرآن! كيف يهنيهم النوم، ويُسيغهم أنْ يشتغلوا بشيءٍ مِن الدنيا، وهم يتكلمون كلام الرحمن، أما لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به؛ لذهبَ عنهم النوم فرحًا بما رُزِقُوا ووفقُوا»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٠).

(٢) ينظر: حلية الأولياء (١٠/ ٢٢)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٩٠).

وأنشد ذو النون المصري:

مَنَعَ القُرَانُ بِوَعْـدِه وَوَعِيـدِهِ   مُقَلَ الْعُيُـونِ بِلَيْلِهَـا لَا تَهْجَـعُ

فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ كَلَامَهُ   فَهْمًا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ[1]

وقال بعض السلف[2]: «أهلُ الليل في ليلهم ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاء في الدنيا»[3].

وقال آخر: «مساكين أهل الدنيا: خرجوا مِن الدنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها. قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأُنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عَمَّا سِوَاه»[4].

وهذا الشوق والأُنس بالله والإقبال عليه، أعظم بواعثه العيش مع القرآن وتدبره والتنعم بتلاوتِه.

---

(١) ينظر: حلية الأولياء (٩/ ٣٦٩).

(٢) هذا القول ينسب لأبي سليمان الداراني رحمه الله.

(٣) ينظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (٢/ ٣٢٢).

(٤) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٤٥٢).

لقد فهم السلف الصالح هذا المعنى ووعوه؛ فأثمر ذلك لديهم هِمَمًا طامحةً لتخليةِ الذهن للقرآنِ في مواسمِ النفحات، وكان لديهم بقراءته عجائب، وكان يُسمع لهم به دوي كدوي النحل مِن التأثر.

إنَّ علينا جميعًا أنْ نستيقنَ أنَّ العيشَ مع القرآن وتدبره وتفهم معانيه والعمل به، هو مقصود التلاوة، كما أدرك ذلك سلفُنا الصالح.

قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إنَّ مَن كان قبلكم رأوا القرآن رسائل مِن ربهم، فكانوا يتدبرونها في الليل، ويتفقدونها في النهار»[١].

فأطْلِقْ لنفسِك -أيها المُوفَّق- رُوحَها؛ لِتعُبَّ من رياحين القرآن، وفرِّغ قلبك، وأخْلِ ذهنك للقرآن؛ كي تعيش معه فيُرفرف قلبك في قِمم السعادة، فتفوز فوزًا عظيمًا.



(١) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن ص (٢٨).

السِّمةُ الثالثة
جمعيةُ القلبِ وصِدقُ إقبالِه

إنَّ غايةَ الاعتكاف ومقصودَه: استقامة القلب، والقلبُ لا يستقيمُ على صراطِ الله إلا بإقبالِه بكُلِّيته على الله، ومتى ما انصرفَ عن الله وسَبَح في أشتاتٍ بعيدةٍ عنه؛ فقد فاته المقصودُ مِن الاعتكاف، ولو كان الجسدُ عاكفًا.

ولهذا؛ «لمّا كانَ صلاحُ القلبِ واستقامتُه على طريقِ سيرِه إلى الله تعالى، متوقِفًا على جَمعِيَّته على الله، ولَـمِّ شَعَثِه بإقبالِه بالكُلِّيةِ على الله تعالى، فإنَّ شعثَ القلبِ لا يَلُمُّه إلا الإقبالُ على الله تعالى، وكان فضولُ الطعامِ والشرابِ، وفضولُ مخالطة الأنامِ، وفضولُ الكلامِ، وفضولُ المنامِ، مما يزيدُهُ شَعَثًا، ويُشتِّتُهُ في كلِّ وادٍ، ويقْطَعهُ عنْ سيرِه إلى الله تعالى، أو يُضعفُه أو يَعُوقُه ويوقفُه؛ اقتضتْ رحمةُ العزيزِ الرحيمِ بعبادِه أنْ شرعَ لهم مِن الصومِ ما يُذهبُ فضولَ الطعامِ

والشرابِ، ويستفرغُ مِن القلبِ أخلاطَ الشهواتِ المُعوِّقَة له عنْ سيرِه إلى اللهِ تعالى، وشرعِهِ بقْدرِ المصلحةِ، بحيثُ ينتفعُ به العبدُ في دُنياه وأُخراه، ولا يَضُرُّه ولا يَقْطَعُه عنْ مصالِحِه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكافَ الذي مقصودُه وروحُه عكوفُ القلبِ على الله تعالى، وجَمعيتُه عليه، والخلوةُ به، والانقطاعُ عنْ الاشتغال بالخلق، والاشتغالُ به وحده سبحانه بحيثُ يصيرُ ذكرُهُ وحُبُّهُ، والإقبالُ عليه في مَحَلِّ هُموم القلب وخطراتِه، فيستولي عليه بَدَلها[1]، ويصيرُ الهَمُّ كلُّه به، والخطراتُ كلُّها بذكرِه، والتفكرُ في تحصيلِ مراضيه وما يُقربُ منه، فيصيرُ أُنسهِ بالله بدلًا عنْ أُنسه بالخلق، فيُعِدُّه بذلك لأُنسِه به يومَ الوحشةِ في القبور حين لا أَنيسَ له، ولا ما يفرحُ به سواه، **فهذا مَقصودُ الاعتكافِ الأعظمِ**»[2].

❁ ❁ ❁

(١) أي بدل الهموم والخطرات.

(٢) زاد المعاد (٢/ ٨٢، ٨٣).

السِّمةُ الرابعة
استشعارُ مَعيّةِ اللّه لعبدِه

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] إنها آية عظيمة يَستوحي منها العبدُ المؤمنُ اطلاع الله عليه في كل تقلباتِه وأحوالِه وعباداتِه، «أي يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة وقت قيامك وتقلبك راكعًا وساجدًا، وخصَها بالذِّكرِ لفضلها وشرفها؛ ولأنَّ مَن استحضر فيها قُربَ ربِّه خشعَ وذَل»[(١)].

وهذه الآيةُ الكريمة جاءت في آخر سورة الشعراء بعد أمْر النبي ﷺ بالإنذارِ والثبات على الحقِّ والتوكلِ على الله ... فكأنَّ في هذا إلماحة إلى أنْ استحضارَ مَعيّة الله لعبدِه واطلاعه عليه حين القيام

(١) تيسير الكريم الرحمن ص(٥٩٩).

بالعبادة، هو زادٌ رُوحي يُسلي قلبَ المؤمن في طريقهِ إلى الله، ويَسُلُّ سخيمتَه، ويُجلي عنه صخب الحياة وكدرها وعذاباتها.

إنَّ استحضار هذه المعيَّة ومراقبة الله لعبده وعلمه بحاله، وإحاطته بسره وعلانيته، وقوله وعمله؛ لهو كفيلٌ بإزالةِ الغشاوة عن القلب وزوال غبار أوضار الدنيا؛ ليحل محلها الإخلاص الذي يلفه سياج الصدق مع الله وابتغاء ثوابه وعطائه الأخروي، فإنَّ مَن كان بهذه المنزلة في الرقابةِ الذاتية عند أداء العبادة لا تتطلع همته إلا إلى أعلى المنازل في الآخرة؛ لأنَّ الدنيا وحظوظها باستشعار معيّة الله ورقابته تُصبحُ هشيمًا تذروه الرياح، وإذا غابت الرقابة أو ضعفت في قلب العبد هجمت عليه نوازع النفس هجوم الأسد الضاري على فريستهِ في يوم مسغبةٍ وغياب رقيبٍ.



السِّمةُ الخامسة
تعظيمُ اللّه تعالى

إنَّ الأصلَ في عبوديتنا لله ﷻ أنْ تكون قائمة على توقيره وتعظيمه وإجلالِه، ورمضان، وعشره الفاضلات، والاعتكاف؛ بوابات مباركة لتنمية هذا التوقير والتعظيم في قلوبِنا، وهذه المناسبات مِن أعظمِ مُورِثاتِ هذا المطلبِ الجليل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]: «أيْ: لا تَعظِّمونَ الله حقَّ عظمته»[١]، فحق التوقير: التعظيم في القلب، وحق التعظيم بالقلب: الطاعة بالجوارح[٢].

وكلما تدبر المؤمنُ آيات القرآن وأحاديث السُّنة التي جاء فيها

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٥).

(٢) ينظر: روح الصيام ومعانيه، للدكتور/ عبدالعزيز كامل ص (٨٩).

ذكر أسماء الله الحسنى وعظمته وجلاله؛ انخلع قلبُه إجلالًا لله وتعظيمًا له، يتلو قول الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، فينساب إلى قلبه مشاعر من تعظيم الله وإجلاله، مشاعر فياضة تستخرج رواسب التعلق بالدنيا والإخلاد إليها، فلا يبقى في القلب سكنٌ لغير إجلال الله.

يقرأ قوله سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، يتأملُ هذه الآية ويقف عند معانيها فتستجيشُ في قلبه أطياف الشعور بعظمة هذا الكلام وعظمة المتكلِّم به سبحانه.

إنه «كلام الله، وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال

الأفعال الدالِّ على كمال الذات، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله؛ فيصبح فؤاد عبده فارغًا إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء كما قيل:

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

فتبقى المحبة له طبعًا لا تكلفًا، وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جد في العمل، كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المُغَلِّ[1] غَلَّق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قَصَّر في البذر...

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذلِّ لعظمته، والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له، فتعلوه السكينة والوقار في

(١) المغلّ أو الغَلَّة: الدَّخْل الذي يُحَصَّلُ من الزرع والثمر. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨١)، ولسان العرب (١١/ ٥٠٤).

قلبِه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأُنس والفرح به والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه، ويُوجب له شهود صفات الربوبية؛ التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له»[(١)].

وفي السُّنة الغراء يقرأُ المؤمنُ حديثَ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْـمَلِكُ، أَيْنَ الْـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْـمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْـمَلِكُ أَيْنَ الْـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْـمُتَكَبِّرُونَ؟»[(٢)]، فيُقلب الطرف في أسرار هذا

(١) الفوائد لابن القيم ص (٦٩ – ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٩/ ١٢٣) رقم (٧٤١٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨) رقم (٢٧٨٨)، واللفظ له.

الحديث، ويُسرح قلبه في ظلال معانيه، فيتملكه شعور بالهيبة والإجلال لذي الجلال جَلَّ جَلَالُهُ، إنها مشاعر سمو وعلو، يرتفع بها القلب إلى ذرى المقامات؛ جراء سطوة هذه النصوص التي تستفز القلب فينبعث منه تعظيم الله وخشيته وإجلاله.

فكيف لا يكون القلب عاكفًا وقد امتلأ تعظيمًا لله جلَّ في علاه؟!، فلا ريب أنَّ القلب إذا امتلأ بذلك توصل إلى لُبِّ الاعتكاف وحقيقته.



السِّمةُ السادسة
افتقارُ العبدِ إلى ربِّه وشعورُه بالحاجةِ إليه

إنَّ الاعتكافَ في بيتٍ مِن بيوتِ الله، اعتكاف قلب، صورة حية لمشهد ذُلِّ العبدِ وافتقارِه لمولاه، ولا تتم العبوديَّة إلا «بتكميلِ مقام الذل والانقياد، وأكملُ الخلق عبوديةً أكملُهم ذلًّا لله وانقيادًا وطاعة، والعبد ذليلٌ لمولاه الحق بِكلِّ وجه مِن وجوه الذل، فهو ذليل لعزه، وذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانِه إليه وإنعامه عليه»[1].

إنَّ العبدَ كلما انكسر بين يدي مولاه كان قريبًا مِن الله، ومِن رحمته ونصره وعطاياه، يُوفقه ويَهديه ويجبر كسر قلبه «فما أقربُ الجبر مِن هذا القلبِ المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذَرةٌ مِن هذا ونَفَسٌ منه أحبُّ إلى الله

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٨٩).

مِن طاعاتٍ أمثال الجبال مِن المُدِلِّين المعُجبين بأعمالِهم وعلومِهم وأحوالِهم، وأحبُّ القلوبِ إلى الله سبحانه قلبٌ قد تمكنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكسُ الرأسِ بين يدي ربِّه، لا يرفعُ رأسَه إليه حياءً وخجلًا مِن الله(١).

إنَّ الله سبحانه يُحب مِن عبدِه أنْ يكونَ منكسرًا بين يديه، ملازمًا لحالةِ الذُّل له، مفتقرًا دومًا إليه، بل إنَّ القلبَ لا تستقيمُ له حال إلا بالافتقارِ إلى الله الذي هو لُبُّ العبودية وروحُها، «فالقلبُ لا يصلح ولا يفلح، ولا يَلتذ، ولا يُسر، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادةِ ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به مِن المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربِّه، مِن حيث هو معبوده، ومحبوبه، ومطلوبه»(٢).

وكلما تعمق شعور العبد بحاجتِهِ إلى الله، دفعه إلى الإنابة، واستكانة القلب، وعكوفه على محبة الله وكثرة ذكره وشكره وحمده

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٤٢٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩٤).

وتمجيده والثناء عليه، وهذه سمة المؤمن في حياته، وفي سائر أوقاته، وحال بيعه وشرائه، ومع أهله وخلانه، فكيف به وهو في صلب ميدان المنافسة، وفي ليالي الرحمات، وتنزل الهبات، وهو عاكف بقلبه وجسده على طاعة ربه، حينما يصل إلى «صفاء العبودية، وعمارة السر بينه وبين الله، وخلوص الود؛ فيُصبح ويُمسي ولا هَمَّ له غير ربه، فقد قطَع همُّه بربِّه عنه جميعَ الهموم، وعطلت إراداته جميع الإرادات، ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه»(١).

إنَّ المؤمنَ حينما يتيقن حاجته إلى ربه، ويستشعر أنها أهم الضروريات، يصل إلى نقاءِ العبودية، وإلى لذةِ الخلوة بالله.

إنه حينما يستشعر فقره إلى الله، ومسيس الحاجةِ إلى التذللِ بين يديه، ويندفع إلى ذلك بصدقٍ وجامعيةِ قلب؛ سيجد عالمًا آخر مِن نعيم الأرواح، ولذة النفس، وقُرة العين، نعيمًا للعبادة «لا ينالُه الوصف، ولا يدركُه مَنْ ليس له نَصيبٌ منه، وكلُّ مَنْ كان به أقوم

---

(١) طريق الهجرتين ص (١٧).

كان نصيبُه مِن الالتذاذِ به أعظم»[١]، «والقلبُ إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكنْ عنده شيء قط أحلى مِن ذلك ولا ألذ ولا أطيب»[٢].

إذن فَسِرُّ الاعتكاف لزوم الافتقار والانكسار والتذلل لله، والانطراح على عتبات عبوديته سبحانه.

❁ ❁ ❁

(١) طريق الهجرتين ص (٥٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).

السِّمةُ السابعة
استحضارُ مِنّة الله وفضله

مِن روائع التربية القرآنية في أوائل الدعوة النبوية ما جاء في مطلع سورة المُدَّثر، عندما أمر الله نبيه ﷺ بالنذارة والدعوة ثم قال له: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدَّثر: ٦].

إنها الوصية الربانية التي تجرد العبد من الاستعلاء بالعمل، وتملأ قلبه مهابةً وإجلالًا لله، واستحضارًا لمشاهد مِننه التي غمرت حياة العبد، فما من سبيلٍ إلا ولله على عبدهِ نِعَمْ، لا يُعدُّها عاد، ولا يُحصيها كتاب.

إنَّ المؤمنَ الحق هو مَن يُديم استحضار مشاهد مِنَنِ ربه عليه؛ لأنها قد طوقت المؤمن طوقًا يملأ الأرض والسماء، فهو الذي أفاض عليه نِعمًا أعلاها نعمة الهداية التي يعجز اللسان عن الوفاء بقدرها، حيث أخرجه ربُّه بها مِن ظُلمةِ الضلال إلى نور الهداية، ومِن لُجةِ

الغي إلى رحاب الإيمان، «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»[١].

لذا عتب الله على مَن غفل عن مشاهدة مِننه، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

إنها تربية القرآن التي تُطهر القلب من الاستعلاء، وتمحو عنه مسارب الإدلال، وتملؤه إجلالًا لله واعترافًا بفضله ومنته، كما فقه ذلك أولو الفضل من أمثال عمر رضي الله عنه حينما طُعن وقال له عبدالله بن عباس رضي الله عنهما مواسيًا: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ الله ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ، قَالَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ الله تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ

(١) قطعة من حديث قدسي أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤) رقم (٢٥٧٧).

مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا تَرَى مِنْ جَزَعِي فَهُوَ مِنْ أَجْلِكَ وَأَجْلِ أَصْحَابِكَ، وَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الأَرْضِ[١] ذَهَبًا لَافْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ ﷻ، قَبْلَ أَنْ أَرَاهُ»[٢].

إنَّ استحضارَ مشهد مِنَّة الله يُزيلُ مِن القلبِ كوابح العُجب، ويغسله مِن درن الإدلال، ويُطهره مِن الدنس ليكون وعاءً نظيفًا يتزكى بالإيمان، ويرتفع بأعمال القلوب، وينتفع بأعمال الجوارح، أما إذا وُجدت هذه الأعمال مع شوائب العُجب والإدلال بالعمل، فإنها تَسْحقُ قلبَ صاحبها سحقًا، فلا تُبقي فيه خيرًا ولا تذر، ومِنْ ثَمَّ قال الله لمن أدلَّ بعمله، «قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[٣].

إنَّ إعجابَ المرء بعملِهِ والإدلال به سقطة مِن أشنع السقطات وأقبحها، إنه محرقةٌ للطاعات، ومَنْبتٌ للرذائل وشتى الأدواء والآفات.

(١) طِلَاعُ الأَرْضِ: ملؤها. ينظر: جمهرة اللغة (٢/ ٩١٥)، والصحاح (٣/ ١٢٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٢) رقم (٣٦٩٢).

(٣) حديث قدسي أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٣) رقم (٢٦٢١)، من حديث جندب ﵁، عن النبي ﷺ، عن ربه.

وكان السلفُ يحاذرون العُجب ويفرون منه، قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: «لأنْ أبيتَ نائمًا وأُصبحَ نادمًا، أحبُّ إلي مِن أنْ أبيتَ قائمًا فأُصبح مُعجبًا»[١].

«إنك أنْ تبيتَ نائمًا وتُصبح نادمًا، خير مِن أنْ تبيتَ قائمًا وتُصبح مُعجبًا، فإنَّ المُعجب لا يصعد له عمل، وإنك أنْ تضحك وأنت معترف، خير مِن أنْ تبكي وأنت مُدْلٍ، وأنين المذنبين أحب إلى الله مِن زجل المسبحين المدلين»[٢].

فأَوقِدْ أيها المُعْتكِف في ذهنك شرارة الشعور بمنة الله وتزكيته لك، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١].

❃ ❃ ❃

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ١٥١) رقم (٤٤٨)، وأحمد في الزهد ص (١٩٥) رقم (١٣٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٩٥).

السِّمةُ الثامنة
الاعترافُ بالذنبِ والتقصير



إنَّ لمحةً خاطفةً، وتأملًا سريعًا في ابتهالات الأنبياء والصالحين ومناجاتهم وأدعيتهم، يكشفُ لك سرًّا يكتنفها، ألا وهو اشتمالها على الاعترافِ بالذنب والظلم، وإليك سِجلًّا وصفحات مشرقة من اعترافهم بالذنب والظلم:

فهذا آدم وحواء يدعوان: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهذا موسى عليه السلام -وهو مِن أولي العزم مِن الرسل- يدعو: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وهذا يونس عليه السلام يبتهل إلى ربِّه ويُناجيه معترفًا بذنبه بل بكونه مِن الظالمين، ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ

﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وحينما استرشد الصديق ﵁ النبي ﷺ وقال له: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

إنها التربية النبوية التي تحدُّ مِن استعلاء العبد، وتجعله دائم الافتقار لربه، دائم الانكسار بين يديه مستحضرًا ذنوبه بين عينيه، وإذا كانت هذه هي وصية النبي ﷺ لأبي بكر ﵁ وهو مَنْ هو فضلًا وإمامةً وجلالة ونصرةً لدينه وذبًّا عن نبيه؛ فكيف يكون حالنا ونحن المذنبون المفرطون؟!

فالزمْ أيها المُعْتَكِف هذا المشهد، معترفًا بذنبك، مقبلًا على ربك، متيقنًا من قلبك أنْك مِن الظالمين، واجعل هذه الدعوات المباركة على لسانِك في كلِّ أحوالك، واحذرْ أن تَنْبِسَ بها بشفتيك، وقلبك مِن

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٦٦) رقم (٨٣٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٨) رقم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق ﵁.

الاعتراف بها خالٍ، فإنَّ حقيقةَ الصدق أنْ يُواطِئ القلبُ ما يجري به اللسان.

❋ ❋ ❋

السِّمةُ التاسعة
الإقبالُ على اللهِ بمُداومةِ الذِّكر

إنَّ استدامةَ ذكرِ الله واستغفارِه والثناءِ عليه مشهدٌ من مشاهد عكوفِ القلب وصحته وصفائه وبلوغه معالي الدرجات الإيمانية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

إنَّ ذكر الله تعالى يَعمُرُ القلب ويملؤه نورًا وسرورًا، بل إنَّ القلبَ بفقده يكون في ظلامٍ وظُلمة؛ لأنَّ «في القلبِ خلة وفاقة لا يسدها شيء البَتَّة إلا ذكر الله ﷻ، فإذا صار شعار القلب، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبع له، فهذا هو الذِّكر الذي يسد الخلة ويفني الفاقة، فيكون صاحبه غنيًّا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان، فإذا كان غافلًا عنْ ذِكر الله ﷻ فهو بضد ذلك،

فقير مع كثرة جِدَتِه، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته»[(١)].

وقلبُ المؤمن لا يسكنْ ولا يلتذ ولا يجد للحياة مذاقًا وأُنسًا إلا بذكر الله، ولقد وصف الله أهل الإيمان وأولي الألباب بأنهم: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١].

فهذه هجيراهم: اللهج بذكر الله وهم قيام، واللهج بذكره وهم قعود، واللهج بذكره وهم على فرشهم وعلى جنوبهم، تعلقت قلوبهم بالله فاستداموا الذكر في جميع الأحوال.

يا الله، كم هي لفتة قرآنية مؤثرة!! ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ فهم مِن شدة تعلقهم بالله يذكرونه في هذه الحال التي هي مَظِنَّة شرود أو غفلة أو نَصب، لكنْ هؤلاء قومٌ وصل بهم التعلق الشديد بالله سبحانه ألّا ينسوه في هذه الحال التي يستحكم فيها الذهول غالبًا.

إنه قلب تشبث فيه الإيمان واستمكن، فأحدث ذلك أثرًا في

---

(١) الوابل الصيب ص (١٣٩- ١٤٠).

اللسان بحركة دائبة في الذِّكر، حين القيام، والاضطجاع، والقعود، وحين الدخول والخروج، وحين الأكل والشرب، وحين اليقظة وعند النوم، وفي الحضر والسفر، وفي الليل والنهار، فهو دائم الافتقار إلى الله والتعلق به لا يغفل ساعة ولا أدنى من ذلك، فإنْ غفل أو توانى وَجَدَ ثقلًا في النفس، وشعورًا بالنقص لا يسَدُّه إلا مراجعة المسار، وعود القلب إلى مَعينِه ونَعيمِه، ومِنْ ثَمَّ تسطع أنواره، وتتهلل سبحات وجهه.

قال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى الله، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[1]، وفي رواية: «إِنَّهُ لَيُغَانُ[2] عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٥) رقم (٢٧٠٢) (٤٢) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه.

(٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٣-٢٤): «قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي» قال أهل اللغة: الغين -بالغين المعجمة- والغيم بمعنى، والمراد هنا: ما يتغشى القلب، قال القاضي: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبا واستغفر منه، قال: وقيل هو همه بسبب أمته وما اطلع عليه من أحوالها بعده فيستغفر لهم، وقيل: سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ومداراته وتأليف المؤلفة ونحو ذلك، فيشتغل بذلك من عظيم مقامه فيراه ذنبا بالنسبة إلى عظيم منزلته... ».

اللهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»(٢).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ:أَنَّ فَاطِمَةَ ﷺ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ؟ تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدِينَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتُكَبِّرِينَ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ»، قَالَ عَلِيٌّ: «مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، قِيلَ لَهُ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قَالَ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ»(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: «إِنِّي لَأُسَبِّحُ كُلَّ يَوْمٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ، قَدْرَ دِيَتِي»(٤).

وذكر الحافظ عبد الغني في «الكمال» في ترجمة أبي الدرداء ﷺ، أنه

---

(١) أخرجها مسلم أيضًا (٤/ ٢٠٧٥) رقم (٢٧٠٢) (٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٦٧) رقم (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) رواه البخاري (٧/ ٦٥) رقم (٥٣٦٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٩١) رقم (٢٧٢٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٥) رقم (٢٦٧٣٣).

كان يُسبح في اليوم مائة ألف تسبيحة[١].

إنَّ الله ﷻ لم يأمرْ أهل الإيمان بالذِّكر فحسب، بل أمرهم بالإكثارِ منه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وقال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وأبان النَّبيُّ ﷺ أنَّ المكثرين مِن ذِكرِ الله هم أسبق الناس إلى الأجور، فقال ﷺ: «سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ» قَالُوا: وَمَا الْـمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ»[٢]، والْمُفرِّدُون جمع: مُفرِّد، والمراد به المنفرد والمنقطع إلى الله بقلبه ولسانه لكثرة ذكره.

وجلالة منزلة الذِّكر وعظيم أثره، كان روحَ الأعمال وأكبرها كما قال تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥][٣].

ولا شيء يُذَلِّل اللسانَ ويُرطبه، ويَصقل الإيمان ويَرفعه؛ كذكر الله ﷻ، سِيما مَن حافظ على أورادٍ مِن الأذكار يَعْمُر بها اللحظات،

(١) ينظر: الحاوي للفتاوي للسيوطي (٢/ ٥)، وشذرات الذهب (٢/ ١١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٢)، رقم (٢٦٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) على خلاف بين المفسرين في معنى الآية، ولكن هذا أحد الأقوال.

ويُحيي بها القلب، وقد توارد الصالحون وتوافقوا على أنَّ ذلك هو سلاح المؤمن الذي يَخرق حُجُب الغفلة، ويفتح أقفال القلب في كل عصر، فكيف بعصرٍ تشابكت فيه عاديات الزمان وصوراف الأيام؟!.

تلوحُ في ليالي العشر عبر نسمات الأسحار، وعبق الاستغفار فرصةٌ ثمينةٌ لإصلاحِ القلب: حيث الصَّفاء والسَّكينة ولحظات التنزل الإلهي.

إنَّ هذا الصفاء كما يُجدد الإيمان، فإنَّه يُجددُ البراءةَ مِن النفاق، فأهلُ النِّفاق هم أكثر الناس غفلةً وأقلهم ذِكرًا لله، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[النساء: ١٤٢] والواجبُ على المؤمن أنْ يخالفَ المنافقين بكثرةِ ذكرِ الله، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «مَن أكثر مِن ذكر الله؛ بَرِئ من النِّفَاق»[(١)].

فرطِّبْ لسانَك –أيها المُبارك– بذكر الله، فلا شيء أصلح للقلب من ذلك، ولا شيء يُثقِّل الميزان يوم القيامة كالذِّكر.



(١) ينظر: لسان الميزان (١٩٥٥).

السِّمةُ العاشرة
الإقبالُ على اللّهِ بكثرةِ الدُّعاء

إنَّ مِن أَجَلِّ العبادات التي يظهر فيها ذُلُّ العبد بين يدي ربِّه: الدعاء، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

إنَّ عبادةَ الدعاء في العشرِ الأخير مِن رمضان وحينما يكون العبد عاكفًا، لها مذاق يعرفه المتضرعون المنكسرون بين يدي الله البَاكُون المتباكون، حيث يستشعرون القرب مِن مولاهم والوعد بالإجابة، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي مجيء هذه الآية الكريمة في سياق الصيام متخللة بينه وبين ذكر

الاعتكاف، لفتة عظيمة إلى بيان منزلة عبادة الدعاء حينما يكون العبد صائمًا عاكفًا.

إنها عبادة تتألق في هذه الليال التي ينكسر فيها العبد، فيَرِقُّ القلب، وتَرِفُّ الروح، فتجف الشهوات وتنكسر النفس، ويكون ذلك تأهيلًا للعبد لأن يكون مُستجيبًا لله، ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾ فيستجيب الله له، فإجابة الدعاء تقترن دائمًا بانكسار القلب وضعف النفس وتحررها من ضغوط الشهوات، وهذا لا يتوافر في حال مِن أحوال الإنسان بقدر توافره في حال الصيام والاعتكاف[1].

وهذا الموطن كبقية المواطن التي يُستحبُ فيها استكانة العبد وانكساره بين يدي ربه، أخرج الطبراني مِن حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَدْعُو بِعَرَفَةَ، وَيَدَاهُ إِلَى صَدْرِهِ كَاسْتِطْعَامِ الْمِسْكِينِ»[2].

وقد كان بعض الصالحين يجلس بالليل ساكنًا مُطرِقًا برأسِه، يَمُدُّ

(١) ينظر: روح الصيام ومعانيه ص (١١٦).

(٢) المعجم الأوسط (٣/ ١٨٩) رقم (٢٨٩٢)، وإسناده ضعيف.

يديه كحالِ السائل، وهذه من أكمل هيئات الذل والسكينة، والافتقار إلى الله.

وافتقار القلب في الدعاء، وانكساره لله ﷻ، واستشعاره شدة الفاقة إليه والحاجة لديه مظنة إجابة، وعلى قدر هذه الحرقة والفاقة تكون الإجابة.

جاء في «جامع الترمذي» وغيره عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الله لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[(١)].

ومِن جميلِ أحوال الدعاء: إظهار الذُّل باللسان في نفس السؤال مع الإلحاح فيه، قال الأوزاعي رحمه الله: «يُقَالُ أَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْإِلْحَاحُ عَلَى الله وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ»[(٢)].

وعند الطبراني بسندٍ فيه اختلاف عنْ ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٩٤) رقم (٣٤٧٩)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١١) رقم (٥١٠٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠) رقم (١٨١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٢) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٥/ ٣٤٦).

دعا يوم عرفة فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَسْمَعُ كَلَامِي، وَتَرَى مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ الْوَجِلُ الْمُشْفِقُ الْمُقِرُّ الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، مَنْ خَشَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ لَكَ جَسَدُهُ وَرَغِمَ أَنْفُهُ لَكَ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ شَقِيًّا، وَكُنْ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا يَا خَيْرَ الْمَسْئُولِينَ وَيَا خَيْرَ الْمُعْطِينَ»[(١)].

إذنْ فالدعاءُ هو لُب التَّعبد، وخالص العِبادة؛ لما ينطوي عليه مِن الافتقار التام لله، والذُّل بين يديه، وهو أنفع عبوديات القلب وأكثرها تأثيرًا فيه، ولاسيما إذا حضر قلب الداعي، واستحضر معاني ما يدعو به، فإذا كانت تلك الدعوات والابتهالات مما أخبر الله ﷻ به مِن أدعيةِ صفوةِ خلقه كانت أنجع شيءٍ للقلب؛ لما تشتمل عليه مِن مجامع الدعاء، وصدق التذلل، واستحضار معاني الربوبية؛ ولهذا كان الأنبياء يُصدِّرون أدعيتَهم بقولهِم: «ربَّنا».

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٧٤) رقم (١١٤٠٥)، والدعاء ص (٢٧٤) رقم (٨٧٧)، وفي إسناده ضعف.

وأكثر أدعية القرآن كذلك، تأتي مُصدَّرة بالتوسل إلى الله بربوبيته، والدَّاعي حينما يدعو الله مُتوسلًا بربوبيته يَحسن له استحضار معنى تربية الله العامة، وهي: الخلق والتدبير، ومعنى التربية الخاصة، وهي: ولايته لخيار خلقه، ولطفه بهم وإصلاحه لدينهم ودنياهم، وذلك لإقبالهم على ربهم، وضراعتهم بين يديه.

ويُستحبُّ له أنْ يدعو بأدعيةِ الأنبياء فإنها أدعيةٌ جامعةٌ، ويَحْسنُ بالداعي أنْ يدعو بدعاء الراسخين في العلم؛ لأنه سبحانه حينما أثنى عليهم ذكر دعوتهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] فتوسلوا إلى الله بربوبيته أنْ يمنحَهم استقامة القلوب وثباتها على مراضي الله، وحفظها مِن الزيغ، والنكوص عن الهداية(١).



(١) ينظر: المواهب الربانية من الآيات القرآنية للسعدي ص (٥٦-٥٨).

السِّمة الحادية عشر
الإخباتُ والخشوع[(١)]

إنَّ الله سبحانه وتعالى مدحَ في كتابِه المخُبتين له، والمنُكسرين لعظمته، والخاضعين لكبريائه، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ إلى أنْ قال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ووصفَ المؤمنين بالخشوع له في أشرف عباداتهم التي هم عليها

(١) ينظر في هذه السِّمة: الخشوع في الصلاة لابن رجب ص (١١-٢٨).

يحافظون، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٢].

وأثنى سبحانه وتعالى على أهل الخشية المشفقين من عذاب الله فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وقال جل جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمْ وَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

•••

وَمَا فُرْشُهُمْ إِلا أَيَامِنُ أُزْرِهِمْ ... وَمَا وُسْدُهُمْ إِلا مُلاءٌ وَأَذْرُعُ
وَمَا لَيْلُهُمْ فِيهِنَّ إِلا تَخَوُّبٌ ... وَمَا نَوْمُهُمْ إِلا عِشَاشٌ مُرَوَّعُ
وَأَلْوَانُهُمْ صُفْرٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ ... عَلَيْهَا جِسَادٌ هِيَّ بِالْوَرْسِ مُشْبَعُ

وأصلُ الخشوع: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعه له، كما قال صلى الله عليه وسلم: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْـجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْـجَسَدُ

كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الـجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)].

فإذا خشعَ القلبُ خشعَ السمع والبصر والوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»[(٢)].

ورأى بعض السلف رجلًا يعبث بيده في الصلاة، فقال: «لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هَذَا؛ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»[(٣)].

وقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم الأرض بالخشوع فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩]، فاهتزازها وربوها -وهو ارتفاعها- مزيل لخشوعها، فدلَّ عَلَى أنَّ الخشوعَ الَّذِي كانت عليه هو سكونها

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٠) رقم (٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩) رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٣٤) رقم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٨٦) رقم (٦٧٨٧)، وابن المبارك في الزهد (١/ ٤١٩) رقم (١١٨٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢/ ٢٦٦) رقم (٣٣٠٨) من قول سعيد بن المسيب رحمه الله.

وانخفاضُها، فكذلك القلب إذا خشع فإنه تسكن خواطره وإراداته الرديئة، التي تنشأ من اتباع الهوى فينكسر ويخضع لله ﷻ.

فيزول بذلك ما كان فيه من البَأْو[(١)] والترفع والتكبر والتعاظم، ومتى سكن ذلك في القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها حتى الصوت، وقد وصف الله تعالى الأصوات بالخشوع في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها.

وينبغي أنْ يكونَ الخشوعُ حقيقةً لا تكلفًا، ومتى تكلَّف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه -مع فراغ قلبه مِن الخشوع وخُلوِّه منه- كان ذلك خشوعَ نفاقٍ، وهو الَّذِي كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم: «اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ. قَالُوا: وَمَا خُشُوعُ النِّفَاقِ؟ قَالَ: أَنْ تَرَى الْجَسَدَ خَاشِعًا

---

(١) البَأْو: المراد به الفخر. ينظر: الصحاح (٦/ ٢٢٧٨)، مقاييس اللغة (١/ ٣٢٨)، النهاية في غريب الحديث (١/ ٩٦) (بأو).

وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ»[(١)].

والخشوعُ الحق هو ما أحدثَ أثرًا وتأثيرًا، ورقة في القلب، كما ذكر الله في وصف العُلَماء مِن أهلِ الكتاب قبلنا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

وهذه الآيات تضمنت امتداح مَن أوجبَ لهم سماع آيات الله تأثرًا وخشوعًا وبكاءً، وبالضد من ذلك توعد سبحانه قساة القلوب، فقال ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٤٦) رقم (١٤٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٤٣) رقم (٣٥٧١١)، والإمام أحمد في الزهد ص (١١٧) رقم (٧٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٢٢٠) رقم (٦٥٦٧) موقوفًا على أبي الدرداء رضي الله عنه.

وأخرجه البيهقي في الشعب (٩/ ٢٢٠) رقم (٦٥٦٨) من حديث أبي بكر رضي الله عنه مرفوعًا، وإسناده ضعيف.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٢٢-٢٣]، ولين القلوب هو زوال قسوتها لحدوث الخشوع فيها والرقة.

وقد عاتب الله مَن لا يخشع قلبه لسماع كتابه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

قال ابن مسعود ﷺ: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ»[1]، وفي رواية: «فَأَقْبَلَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ أَيُّ شَيْءٍ أَحْدَثْنَا؟! أَيُّ شَيْءٍ صَنَعْنَا؟!»[2] أي: جعل يُعَاتِب بَعضُهُم بعضًا.

أَمَّا عظمة القرآن وسطوة أثره على نفوس المؤمنين الخاشعين فشيءٌ قد شهد به السلفُ -رحمهم الله- قال أبو عمران الجوني: «والله لقد صَرَّفَ إلينا ربُنا في هذا القرآن ما لو صَرَّفه إِلَى الجبال لمحاها

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٣١٩) رقم (٣٠٢٧).

(٢) أخرجها أبو يعلى في مسند (٩/ ١٦٧) رقم (٥٢٥٦)، وهي زيادة ضعيفة.

ودحاها»[١].

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقرأ هذه الآية ثم يقول: «أُقْسِمُ لَكُمْ لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِهَذَا الْقُرْآنِ إِلَّا صَدَعَ قَلْبُهُ»[٢].

ورُوي عن الحسن رحمه الله أنه قال: «يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة، أو حَدثْت بها نفسَك، فاذكر عند ذلك ما حمَّلك الله من كتابه، مما لو حَمَلَته الجبال الرواسي لخشعت وتصدعت، أما سمعته يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]»[٣].

والله سبحانه إنّما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها، وتعتبر بها وتزدجر عنْ معاصي الله عز وجل، وأنت يا ابن آدم أحق أنْ تخشعَ لذكرِ الله، وما حمَّلك مِن كتابِه وآتاك مِن حكمة؛ لأنَّ عليك الحساب

(١) ينظر: الخشوع في الصلاة لابن رجب ص (١٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص (٢٥٨) رقم (١٨٥٩)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: الخشوع في الصلاة لابن رجب ص (١٩).

ولك الجنّة أو النار.

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله مِن قلبٍ لا يخشع، كما في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»(١).

ولذلك شرع الله تعالى لعبادِه مِن أنواع العبادات ما يَظهر فيه خشوع الأبدان، الناشئ عنْ خشوعِ القلب وذله وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه خشوع الأبدان لله تعالى مِن العبادات الصلاة، وقد مدح الله تعالى الخاشعين فيها بقوله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

ومِن مواضع الخشوع: السجود، وهو أعظم ما يَظهر فيه ذُلّ العبد لربِّه عز وجل، حيث يجعل العبد أشرف ما له مِن الأعضاء، وأعزها عليه وأعلاها أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب مُتعَفِّرًا، ويتبع ذلك

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٨) رقم (٢٧٢٢).

انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله ﷻ.

ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يُقربه الله ﷻ إِلَيْهِ، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، وقال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»[١].

والسجود كان مما يأنف منه المشركون المستكبرون عنْ عِبادةِ الله ﷻ، وكان بعضُهم يقول: أكره أنْ أسجدَ فتعلوني أُستي، وكان بعضُهم يأخذُ كفًّا مِن حصى، فيرفعه إلى وجهه، ويكتفي بذلك عنْ السجود[٢].

وإبليسُ إِنَّمَا طردَه الله لما استكبرَ عنْ السجود لِمَنْ أمره الله بالسجودِ له؛ ولهذا يبكي إذا سجدَ المؤمن ويقول: أُمِرَ ابن آدم

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٥٠) رقم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري (٢/ ٤٠)، رقم (١٠٦٧)، ومسلم (١/ ٤٠٥) رقم (٥٧٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قرأ ﴿والنجم﴾ فسجد فيها، وسجد من كان معه، غير أن شيخا أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، قال عبد الله: «لقد رأيته بعد قُتِل كافرا».

بالسجود ففعل فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النار»[(١)].

ومِن تمامِ خشوع العبد لله ﷻ وتواضعه له في ركوعِه وسجوده، أنه إذا ذَلَّ لربِّه بالركوع والسجود وصفَ رَبَّه حينئذ بصفات العِزِّ والكبرياء والعظمة والعلو، فكأنه يقول: الذُّل والتواضع وصفي، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك، فلهذا شُرع للعبد في ركوعِه أنْ يقول: سبحان ربي العظيم، وفي سجودِه: سبحان ربي الأعلى.

فمتى امتلأَ قلبُ العبدِ خشوعًا وإخباتًا، وخضوعًا وانكسارًا، وصلَ إلى لُبِّ العبادة، وحقق مقصودها، ونالَ غايتها.

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه مسلم (١/ ٨٧) رقم (٨١)، من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة فسجد اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقول: يا ويلي، أُمر ابن آدمَ بِالسُّجُود فَسجد فلهُ الجْنة، وأُمرتُ بالسجود فأبيتُ فليَ النارُ».

وختامًا:

هذه إحدى عشرة سِمة، مِن خلالها يتوصل المُوفق إلى روح الاعتكاف ولُبِّه ومقصودِه، وهذه الغاية ليستْ في الاعتكافِ فحسب، بل في العباداتِ أجمع.

وهبني الله وإياك دوام الصدق، وامتنَّ عليَّ وعليك بلزوم الافتقار إليه، والانكسار بين يديه، ووفقنا لدوامِ عُكوفِ القلوبِ والإقبالِ عليه، نعوذُ باللهِ مِن الذلِّ إلا له، ومِن الانكسارِ إلا بين يديه، ومِن الالتجاءِ إلا إليه، ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

د/ عبدالرحمن بن عبدالعزيز العقل
بريدة – القصيم
١٤٣٥/٩/٥هـ
للتواصل:
جوال: ٠٥٠٤٨٨٣٩٨٨ – ٠٥٩١١٠٠١١٣ – ٠٥٣٥٦٠٠٠١٣
بريد إلكتروني: **al.agal@hotmail.com**
al_khaleefa@hotmail.com

❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات